

نسق اللون والمتواري الثقافي في خطاب تمثيل الأقليات في منطقة الهقار.

من خلال رواية كاماراد لحاج أحمد الصديق .

“The Cultural Dynamics of Color and Concealment in the Discourse of
Minority Representation in the Hoggar Region: A Study of Haj Ahmed
Seddik’s Novel *Camarade*”

* د. عمر بوشنة

Dr. Omar Bouchena

مخبر الممارسات اللغوية والأدبية بالمناطق الصحراوية الجزائرية وامتداداتها بالساحل الإفريقي.

جامعة تامنغست (الجزائر)

University of Tamanghasset (Alger)

bouchena.omar@univ-tam.dz

تاريخ النشر: 2026/03/02

تاريخ القبول: 2025/12/13

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

يناول المقال تمثيل الأقليات الإفريقية في منطقة الهقار من خلال رواية كاماراد، حيث يكشف عن حضور نسق اللون الأسود بوصفه محددًا أساسيًا لصورتهم في الخيال الجمعي، وما يحمله من دلالات التهميش والفقر والتخلف. كما يبرز المقال ثنائية الثابت والمتغير في هذه الصورة؛ فالثابت يتجلى في الصفات الجسدية والقابلية للانقياد، بينما المتغير يتمثل في التحولات الاجتماعية الناتجة عن الهجرة وظروف العيش. وتعرض الرواية جوانب سلبية مرتبطة بهذه الأقليات مثل الشعوذة والمخدرات والدعارة، في مقابل بُعد سياسي يربط معاناتهم بالاستبداد والفساد في بلدانهم الأصلية. وفي النهاية، يظهر أن تمثيل هذه الفئة يقوم على إعادة إنتاج الصور النمطية القديمة مع إضافة تماثلات جديدة فرضها الواقع المعاصر. الكلمات المفتاح: نسق، أسود، ثقافة، إفريقي، هقار، كاماراد.

Abstract :

The article explores the representation of African minorities in the Hoggar region through the novel *Camarade*. It highlights the symbolic role of black skin as a central marker of their image in the collective imagination, often associated with marginalization, poverty, and backwardness. The study emphasizes a duality between what remains constant—such as physical traits and submissiveness—and what changes, namely the social transformations brought about by migration and living conditions.

* اسم المؤلف المرسل بالبريد: bouchena01@gmail.com

The novel also portrays negative practices linked to these minorities, including sorcery, drugs, and prostitution, while underlining a political dimension that connects their suffering to corruption and authoritarian regimes in their homelands. Ultimately, the representation of this group reflects a reproduction of long-standing stereotypes combined with new images shaped by contemporary realities.

Keywords: *Discourse. Blackness. Culture. African. Hoggar. Camarade*



مقدمة:

تتميز منطقة الهقار بثرائها وتنوعها ثقافيا واجتماعيا، إذ أول ما يشاهده الزائر لهذه المنطقة ذلك المزيج الذي يجمع شتات الأعراق والجنسيات والشعوب بداخلها، لا سيما الأقليات التازجة من دول الجوار الإفريقي، فقد انصهرت ضمن تشكيلة المجتمع الهقاري حتى باتت جزءا لا يتجزأ منه، بصفته عنصرا فاعلا في دفع الحركة الاقتصادية في الحياة اليومية، فلا تجد نشاطا تجاريا أو حرفيا إلا والعنصر الإفريقي قوامه، والقائم عليه، يبايع من المسؤول المباشر أو رب العمل الأصلي.

وهذه الأقليات الإفريقية في منطقة الهقار أصبحت تربطها بها علاقة الجزء بالكل، فبعد تزايد الهجرة غير الشرعية واختيار هؤلاء الأفارقة منطقة الهقار موطن استقرار لهم، كان من الطبيعي أن تهاجر مصحوبة بأنساقها ونظمها الاجتماعية والثقافية، وأعرافها وتقاليدها المشكلة لهويته وكيانها الإفريقي، في محاولة منه للتعايش مع مجتمعات أخرى في المكان نفسه، تشبثا وافتتاحا، حسب ما يقتضيه قانون إدارة الهويات المتزامنة داخل الرقعة الجغرافية الواحدة.

وإذا كانت الهوية الثقافية للجماعات تقتضي وجود عناصر مشتركة تجمعها، وتشكل وجودها بما يميزها عن غيرها شكلا ومضمونا، فإن المجتمع الإفريقي قد ارتبطت صورته في الأذهان لدى الآخر بنمطية الصورة الشكلية المتمثلة في لونه الأسود، انبثقت عن نسق اللون (الأسود) حمولة قيمية ثقافية تتوارى خلفها مواقف وتصورات عن حامل هذا اللون. لا تكاد تنفك عنه وهي الفقر والتخلف والمرض وهلم جرا من المصائب والصفات الدينية.

ومن هذا المنطلق قررنا أن نتلمس حقيقة هذا النسق وما يضره لدى الأقليات الإفريقية المهاجرة في منطقة الهقار، من خلال أحد الأعمال الأدبية الروائية، التي اشتغلت على موضوع الهجرة غير الشرعية للأفارقة، وقامت بإعطاء صور متعددة للإنسان الإفريقي وهو في رحلة البحث عن الفردوس المنشود، على حد تعبير حاج أحمد الصديق في روايته كاماراد. إلا أننا حصرن الدراسة في إطار مكاني محدد، وهو منطقة الهقار محاولين الإجابة عن الإشكال الرئيس الآتي: ما المتواري الثقافي خلف نسق اللون في خطاب تمثيل الأقليات داخل منطقة الهقار من خلال رواية كاماراد؟

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال توصلنا بمنهج متكامل؛ يمزج بين المنهج التاريخي الاستردادي في استحضار الظواهر والأحداث في سياقها الزمني، والمنهج الوصفي القائم على آلية التحليل داخل نصوص المدونة المختارة إجرائيا،

والمنهج المقارن بغرض روز الصورة النمطية المشكّلة عن الأقليات الإفريقية عبر التاريخ انطلاقاً من نسق اللون، ومقارنتها بما هو ثاو في الزواية موضوع الدراسة. بغية التعرف على الثابت والمتحوّل منها.
كما استقرت الخطة العملية لهذه الدراسة بعد هذه المقدمة على النقاط الآتية:

01. استدعاء صورة المجتمع الإفريقي في الثقافة العربية.
02. قراءة سريعة في رواية كاماراد. (الموضوع والسياق).
03. نسق اللون والمتواليات الثقافية في خطاب تمثيل الأقليات داخل الرواية. (الثابت والمتحوّل)
04. خلاصة.

أولاً: استدعاء صورة المجتمع الإفريقي في الثقافة العربية.

أ - الصورة النمطية خلفياتها وتداعياتها.

01 الخلفيات والروافد:

إنّ أهم ما يستوقف الناظر في الثقافة العربية حول الصورة النمطية المركّزة في خيال الآخر بالنسبة للإنسان الإفريقي على وجه الخصوص، والإنسان الأسود بوجه عام، إذ ارتبطت صورة الإنسان الأسود بالهيمية والبعد عن الإنسانية والرضوخ للعبودية، والانصاف بالشهوانية المفرطة مع نزق وحمق وخفة وطيش في الأحلام، وهذه الصورة النمطية ظلّت مستحكمة لقرون عديدة، توجّه التصورات والأحكام المتعلقة بالإنسان الإفريقي، وتجعله أمراً حتمياً لا مناص من مفارقتها له حين يجري ذكره على الألسنة.

ولعلّ لانتشار هذه النظرة روافد وخلفيات كرسّت من تعميق هذا الطرح، وغمط الإنسان الإفريقي حقّه في العيش خارج هذه التمثيلات الجائرة. يمكن إجمالها في سببين اثنين هما¹:

1/1 - الزائد التاريخي التوراتي:

فقد تسلّل إلى الثقافة العربية من الإسرائيليات فكرة مفادها أنّ اللون الأسود ما هو إلا لعنة إلهية أصابت ذرية حام بن نوح على إثر دعوة نوح عليه السلام على ابنه بالعبودية والستود.

2/1 . الزائد الجغرافي الطبيعي:

وهو نتيجة تأثر بنظرية تقسيم الأقاليم السبعة التي جاء بها بطليموس (ت150م)؛ حيث بدأ بالإقليم الأول من الجنوب وفيه يوجد الستودان والزّنج، وانتهى بالإقليم السابع في الشمال وبه ياجوج وماجوج و همج الشمال، وصاحب هذا التقسيم فكرة الطبخ والاحتراق؛ بعدما تم تصوّر الأرض على هيئة طعام والشمس موقد له، وبحسب توزيع الأقاليم السابقة سيكون انتشار درجة حرارة الشمس بكل إقليم مختلفاً عن الإقليم الآخر، وعليه تكون نتيجة طبخ كل إقليم إمّا نيّناً بالنسبة للأقاليم التي تبعد عن درجة حرارة الشمس وإما محترقاً بالنسبة للتي تقرب منها وإما معتدلاً بالنسبة للأقاليم التي تقع في الوسط.

ولمّا كانت الزّنج والسودان تعيش في الإقليم الأول الأدنى لدرجة حرارة الشمس، فإنها نضجت حتى احترقت فاكتمست لونا أسود، كان له أثر في فساد تكوين هيئة وأمزجة أهله وقلة عقولهم.

ولقد كان لهذا الطرح تداعيات كبيرة في الثقافة العربية حين تلقاه علماءها بالتسليم وتأثروا به، فبنوا عليه نظرة نمطية لا تبعد عن سابقتها، بل هناك من بالغ في احتوائها حد إخراج الإنسان الإفريقي من دائرة الإنسانية، كما نجد ذلك عند الجاحظ وابن خلدون في كتاباتهم،

02 تداعيات الصورة النمطية للزنج:

1/2 تداعيات الصورة النمطية للزنج عند الجاحظ:

يذهب الجاحظ في كتابه الحيوان إلى أنّ الزنوج والسود عموماً، واقعون تحت تأثير البيئة والطبيعة الجغرافية التي يعيشون فيها مثلهم مثل بقية الحيوانات، وأنّ لذلك انعكاساً يظهر في انخراط درجتهم إلى البهيمية وخفة عقولهم، وفي هذا الصدد يقول: "ومثل سود الحمام من الناس الزنج؛ فإن أرحامهم جاوزت حدّ الإنضاج إلى الإحراق، وشيّطت الشمس شعورهم فتقبضت. والشعر إذا أدنيت من النار تجعد، فإن زدته تغفل، فإن زدته احترق. وكما أنّ عقول سودان الناس وحرمانهم دون عقول السم، كذلك يبض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية".² فهو لا يكتفي بهذا فقط، بل يجعل الزنوج في أحط مرتبة من الحيوان، وذلك من خلال استخدامه للتشبيه المقلوب؛ فيشبه الحمام الأسود بالزنجي في كثرة سواده وقلة معرفته، إذ يقول في موضع آخر: "إذا أسودّ الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجي الشديد البطش. القليل المعرفة".³

وقال أيضاً متأثراً بنظرية جالينوس في الأخلاط والأمزجة وأثرها في اعتدال البدن أو اعتلاله وتأثير الهواء في البدن: "لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من التواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأثام، كما عمل ذلك في طباع الزنج، وطباع الصقالبة، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج".⁴ والظاهر أن هذا الرأي لم يكن للجاحظ وحده، بل هو رأي شيوخه إبراهيم التّظام الذي ينقل عنه أنه قال في سياق علاقة الذكاء بالجنس: "وكان يقول [التّظام]: إنّ الأئمة التي لم تنضجها الأرحام، ويخالفون في ألوان أبدانهم وأحداق عيونهم، وألوان شعورهم، سبيل الاعتدال- لا تكون عقولهم وقراءهم إلا على حسب ذلك".⁵

وفي موضع آخر من كتابه نجد الجاحظ قد أخرج الزنوج من دائرة الإنسانية، بعدما نعتهم بأبشع الأوصاف قائلاً: "ويكون مثله [أي مثل لون الغراب] من الناس الزنج فإنهم شرار الناس، وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول، وجالهم فوق الجمال لعلّة الاعتدال".⁶ كما أنهم أشبه الخلق بأمة الحمير على حدّ قوله: "وزعم لي بعض أهل النظر، أنّ الزنج أشبهوا الحمير في كلّ شيء، حتى في الخلاق؛ فإنه ليس على ظهرها زنجي إلا وهو حلقني".⁷

ويؤكد الجاحظ ذلك في كتابه البيان والتبيين، حين أخرج الزنوج من التصنيف البشريّ المعترف، فقال: "ولست أعني من الأمم مثل البربر والطليسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج. وإنّا الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم. والباقيون همج وأشباه همج".⁸

ولا يقتصر تأثير نظرية جالينوس على الجاحظ في هذه النقطة فحسب، بل حتى في تعداد خصال السودان العشر التي نقلت عنه، وهي: سواد اللون، وتغلغل الشعر وخفة أو دقة الحاجبين وانتشار المنخرين وغلظ الشفتين وتحديد الأسنان وثنّ الجلد وتشقق اليدين والرجلين وطول الذكر.⁹ وفي هذا الصدد يقول: "وليس في الأرض حيوان من

بقرة وثور وحرار وفرس وكلب وإنسان، إلا والسود أشدها أسرا وعصبا، وأظهرها قوة وصبرا.¹⁰ وبخصوص نتن جلودهم يقول: "وجلود الثيوس، وجلود آباط الزنج، منتنة العرق، وسائر ذلك سليم."¹¹

2/2 تداعيات الصورة النمطية للزنج عند ابن خلدون:

يقول ابن خلدون في مقدمته متأثرا بنظرية الأقاليم السبعة، تأثرا بالغا حدا به إلى إنكار إنسانية أمم الإقليم الأول والثاني إذ يقول: "وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال، مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم.... وفواكه بلادهم وأدُمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف ..، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم. حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياط، ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً، وكذا الصقالبة. والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويعودون عن الإنسانية بمقدار ذلك."¹² وبهذا الحكم القاسي يفسر ابن خلدون قابلية الزنوج للزنج والعبودية، إذ يقول في المقدمة الرابعة تحت عنوان: أثر الهواء في أخلاق البشر: "إنما تُدعى للزنج في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم، وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه"¹³

ويحقق ابن خلدون نسبة السود وتسميتهم بذلك لما اعترضهم من سواد بسبب العيش في الإقليم الأول، وينكر على من ينسبهم إلى آدمي بعينه أسود سواء كان من ذرية نوح وهو هنا يقصد ابنه حام، أو غيره، وفيه نستشف أنه يرد الزائد التاريخي الآنف الذكر بالرأف الجغرافي ونظرية الأخلاط والأمزجة؛ كما أنّ المشاهدة تكذّبه، فقد " نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الزايع المعتدل أو السابغ المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدرج مع الأيام. وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الزايع بالجنوب، تسود ألوان أعقابهم. وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء. قال ابن سينا في أرجوزته في الطب:

بالزنج حرّ غير الأجسادا ... حتى كسا جلودها سوادا

والصقل اكتسبت البياضا ... حتى غدت جلودها بياضا¹⁴

3/2 تداعيات الصورة النمطية للزنج خارج الثقافة العربية:

لم يقتصر رواج هذه الصورة النمطية للزنج والإنسان الإفريقي على وجه الخصوص على ما تلقته الثقافة العربية، بل نجد الصورة نفسها ماثلة عند غير العرب، في تصنيفاتهم للأمم والشعوب وفق نظرة إقصائية، تمثل لها بتقسيم الفيلسوف كانط للمجموعات البشرية إلى صفات وأصناف، فجعل في المرتبة الأولى العرق الأبيض وخلع عليه صفات الموهبة والإبداع، وفي المرتبة الثانية الهنود وقال إنّ لهم قابلية على التعلم والتفلسف رغم جمودهم على الموروث، وفي المرتبة الثالثة الزنوج المتصفون بالحيوية والقوة والشغف للحياة، إلا أنهم عاجزون عن التعلم رغم القابلية للتلقين والتدريب الموجودة فيهم. وفي المرتبة الرابعة والأخيرة سكان أمريكا الأصليين فهم غير قابلين للتعلم ولا يحسنون البيان والكلام.¹⁵ ومادامت هذه الصورة النمطية هي المستفحلة داخل الثقافة العربية وخارجها، فإنّه من الإنصاف أن نقول بتأثيرها؛ لسبب واحد وجيه هو عدم إمكانية التعميم في الأحكام المبنية على استقرارات ناقصة، لا تخلو من استثناءات،

والأفجيمع الأم تتقاسم الفضائل والردائل، وفيها الذكي والبليد، ما دام العقل هو قسمة الله العادلة بين البشر، وإن كان هناك تفاوت فلا يمكن أن يجعل أصلا، كما يقول أبو حيان التوحيدي: "فلكل أمة فضائل وردائل ولكل قوم محاسن ومساو فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللزوم العلم والحكمة، وللهند الفكر والروية والحقة والسحر والأناة، وللترك الشجاعة والإقدام، وللتزنج الصبر والكذب والفرح، وللعرب التجارة والقرى والوفاء والبلاء والجد والذمام والخطابة والبيان. ثم إن هذه الفضائل المذكورة، في هذه الأمم المشهورة، ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ثم في جملتها من هو عار من جميعها، وموسوم بأضدادها فقد بان بهذا الكشف أن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة، واختيار الفكرة." ¹⁶

ثانياً: قراءة سريعة في رواية كاماراد. (الموضوع والسياق).

إن موضوع الهجرة غير الشرعية من الموضوعات المسكوت عنها في الأدب عموماً، وفي الرواية العربية على وجه الخصوص، بعدما أصبحت هجرة الأفارقة غير الشرعية شيئاً مألوفاً لسيا المتوجهين إلى الجارة الجزائر ومن ثم إلى ما بعد البحر المتوسط، في ظل صمت وتغافل السلطة الجزائرية عن هذا الأمر، وهو ما عبّر عنه الزيواني بقوله: "الكل يعلم بتواجد ليكاماراد بمارسيليا وباريس لكونهم متواجدين ومختلطين معنا من مدة طويلة حتى قبل هذه المشكلة التي ظهرت في السنوات الأخيرة.... التي يطلقون عليها الهجرة غير الشرعية للوافدين من الجنوب، لذلك فالدرك والجيش والشرطة ومن كثرة رؤيتهم وتعودهم عليها صاروا لا يعيئون بهم لكن الحذر مطلوب بين الحين والآخر تكون هناك حملات لترحيلهم." ¹⁷

وبعد تطرق الكاتب حاج أحمد الصديق لها محاولة منه لكشف خبايا هذا الموضوع وتبسيط الضوء على هذه الظاهرة التي يعاقب عليها قانونياً، في ظل صمت ولا مبالاة الأنظمة السياسية والدولية تجاهها بكل ما تحمله من مفارقات وغرائبية، حملت المخرج جاك بلوز على أن يهيم شطر الجنوب وحده وكثيره، وفي ذلك يقول الزيواني: "غير أن موضوع الهجرة السرية للأفارقة وما شاهده من تراجيديا إنسانية لهؤلاء البسطاء عبر الأفلام الوثائقية. التي تابعتها بالقنوات الفرنسية (ARTE _ TF1 _ TY5) كانت تغارله دائماً لإخراج فيلم سينمائي يحاكي فيه هذه المأساة الكونية" ¹⁸

ولقد اختار الزيواني عتبات نصية تشي بلب الموضوع وخطورته بدءاً بالعنوان الرئيس "كاماراد رفيق الحيف والضياح" الذي يمثل علامة سيميائية طافحة بالمعاناة والأسى، يكفي أن نسمع لفظ "كاماراد" فتستحضر تلك الهيئة الزئة الموسومة بالشقاء، والمتطلعة لغد أفضل وراء بلدان البحر المتوسط، فأوصاف البشرة السوداء الفاحمة والأنف الأفطس والشعر القطط والشوارب الممتلئة والبنية القوية والعروق البادية على الذراعين هي عامل مشترك يجمع أفارقة جنوب الصحراء الكبرى الذين يلتصق بهم وصف الرفيق (كاماراد). ¹⁹

ثم لا تكاد تتجاوز عتبة العنوان حتى تصطدم في أول صفحة من صفحات الرواية بتنقطة من أغنية لمغني الراي الشهير الشاب خالد، هذه النقطة التي تشكل موجزاً إخبارياً ساخناً يبعث الفضول في نفس القارئ لمعرفة التفاصيل الكامنة داخل الفصول التي تليها، وهي قوله: "المستقبل مسدود، ما بقي فالدوق حتى بثة الحوت ولا الدود..." ²⁰ وفيها من التصوير القاصي بيان تفسير نفسية اليبائس القاطن الذي لا يرى منجى من غمرات الموت إلا اقتحامها عن طريق الهجرة غير الشرعية من وطنه الأصلي الذي تكالبت عليه أطباع الساسة فأصبح نبها مقسماً، وهو ما أورده على لسان

المهاجر الإفريقي: "عفوا يا وطن . كلانا ميت ... فقط الأسباب متعددة ... أنا غريق وأنت منحور بمدية حكامك العسكر الذين تشيخوا في إخراج أفلام الانقلاب".²¹

ولعلّ هذا الجانب السياسي كان السبب الرئيس في هجرة الأفارقة إضافة إلى دواعي منبثقة عنه كالحالة الاجتماعية المزرية والرغبة في التحرر جنسيا (المثلية) وعقديًا.

ثالثا: نسق اللون والمتواريات الثقافية في خطاب تمثيل الأقليات داخل الرواية. (الثابت والمتحول)

سنحاول في هذا العنصر أن نسوق أمثلة من رواية كاماراد، نستدلّ بها إجرائيًا على ما تقدّم ذكره نظريًا فيما تعلق بالنظرة النمطية للسود، لنرى ما هو ثابت باق في تركيبة هذه الأقليات منذ قدم التاريخ وما ليس كذلك.

01- المشترك والنسبي في نسق اللون داخل الرواية:

1/1 . الصفات الخلقية:

يقدم الزيواني على لسان أحد الأفارقة في سياق سرده لأحداث الرواية نموذجًا يغني وصفه عن وصف بقية جنسه، وهو الرفيق إدريسو "عشريني، بشرته سوداء فاحمة، هو أطولنا قامة، أنفه أفتس، شعره ققط، شواربه ممتلئة، بينته قوية، عروق أوردة ذراعيه ترسم مشاهد متعرجة ولا حاجة لي بمعاودة هذه السمات سيدي المخرج في وصف أحدنا نحن الرفاق...، هي صفات نكاد نشترك فيها جميعا نحن أفارقة جنوب الصحراء الكبرى الذين تلتصق بنا صفة الرفيق"²²

ومن خلال هذا الوصف يتبين لنا أن هذه الصفات الخلقية هي نفسها التي ذكرها الجاحظ وغيره، وتقدّمت معنا، وأنها صفات ملازمة للزواج والأقليات الإفريقية لا تفارقهم، بل أصبحت وسما عليهم لا يخطئ صاحبه.

2/1 - المفارقة الطبقيّة:

الفقر والجهل والتخلف عنوانات رئيسة للمجتمعات الإفريقية، تدل على مفارقة عجيبية في تركيبة هذا المجتمع المختلة، على الرغم من وجود اليورانيم بمدينة إرليت فقد صتّت كأفقر دولة في العالم، استطاع الروائي حاج أحمد الصديق أن يتفنن في توصيفها داخل فصول روايته، من ذلك قوله على لسان أحد الأفارقة وهو يشخص له الوضع الاجتماعي المزري في عاصمته نيامي: "أكاد أجزم سعادة ضيف نيامي مخرج فيلم كاماراد أن منظر القمامة والهواء الملوّث وحدهما القاسم المشترك بين فقراء عاصمتنا نيامي وأغنيائها"²³ ولك أن تتصوّر أن عاصمة بحجم نيامي لا تتوفر على قنوات صرف صحي، وهو ما جعل أثرياء العاصمة يحفرون آبارا مخصّصة لذلك، ومن سوء حظ والد أحد رفاق (مامادو) المدعو (غاريكو)، الذي كان ينوي وبيّث للهجرة معه، أنه لقي حتفه في أثناء حفر بئر صحي عميق لأحد أثرياء حي (بلاطو) الثري.

وتبلغ المعاناة أعلى هرمها في الحديث الذي روته والدة مامادو عن صورة من صور الفقر المدقع التي عاشتها حيث بلغ بهم الأمر مبلغا جعلهم ينتبعون غيران النمل لنبتش ما فيها من قمح مدّخر كي يسدوا به رمق جوعهم.²⁴

3/1 الخضوع والقبالية للاستيلاء:

من المتواري الثقافي في الأقليات الإفريقية، قبولها للتلقين والخضوع التام للأوامر التي تتلقاها من الآخر، في تسليم وإذعان ناتجين عن ضعف التدبير وقلة الحيلة وتفشي الجهل، مع قابلية للتعليم لا سيما الحرف، كما تقدّم معنا في كلام ابن خلدون، وهذا ما يصوره لنا الزيواني في مشهد يرويه أحدهم وهو في ورشة عمل لأحد المقاولين الجزائريين في

منطقة الهقار إذ يقول: "نزل المقاتل أولاً، أخرج علبة سجائر (مالبورو) حمراء، استلّ منها سيجارة، أشعلها بولاعة حمراء أيضاً، أخذ نفسين متتابعين، أشار بنزول الكباش، ... فعلنا بكل خضوع والله. بعدها تقدم قليلاً نحو بيت حارس الورشة، ... قال بمأمورية:

(كاماراد...).

(كاماراد...).

أقل من دقيقة، خرج شاب كامارادي من بني جلدتنا، ثلاثيني، قصير، قريب إلى الرقة، تعرف مدى إذعانه من أول نظرة، قال بخنوع جمّ في الكلام والهيئة:

(مون باطرون...).

تكلم معه كلام السيد مع عبده ²⁵

4/1 السخرة والجلد على الشاق:

لعل أهم ما يتوارى خلف اللون الأسود في تركيبة الأقليات الإفريقية، قوة أجسادهم وتحملهم للأعمال الشاقة، وهو ما ذكره الجاحظ وغيره ممن أوردنا نظرتهم تجاه هذه الفئة، ويصدّقه في رواية الزيواني، مشهد الأفارقة المهاجرين وهم يشتغلون في ورشة المقاتل السالف الذكر، وهو ما يرويّه أحدهم بقوله: "ناولنا الحارس الكامارادي أدوات التفتيت، مطارق من كل الأحجام والأثقال، فؤوس، مثاقب حديدية غليظة، هجمنا على الخرسانة نهزّسها، بمطارقنا ونستعرض عليها عضلاتنا بفؤوسنا، طول هذه المذكورة فيما قدرت لها أكثر بقليل من عشرين متراً طويلاً، ارتفاعها ذراع، هو أمر ليس سهلاً ولا هيئاً أبداً، لكننا نحن ليكاماراد، هكذا خلقنا الله للأعمال الشاقة سيدي المخرج، فقوى بنيتنا وعزق أوردت دمنّا"²⁶

فمن خلال ظاهر آخر كلام هذا الإفريقي يتأكد لنا أنّ صبر وجلد هؤلاء الأفارقة على المهن الشاقة، وانسجامهم معها دون تعب أو كلل، سببه تلك البنية الجسدية التي وهبها الله لهم، فأصبحت صورة راسخة في مخيال الآخر لا تحيد أبداً.

02 - المتواري الثقافي في خطاب تمثيل الأقليات داخل الزوايا:

1/2 المركز والهامش:

تكاد تكون ثنائية المركز والهامش نسقاً تابعا أو موازياً لنسق اللون في رواية كاماراد، بحيث يشكل الأغنياء في عاصمة نيامي مركزاً والفقراء هامشاً، فيظهر فارق الطبقة بونا شاسعاً بين أفراد المجتمع الواحد، هذا إضافة إلى التقسيم الجغرافي (شمال/ جنوب) العنصريّ الجائر في تقسيم ثروات البلاد وهو ما عبر عنه مامادوا بقوله: "هؤلاء السماسرة الملمثون من ساكنة شمال البلاد يريدون الانتقام منا نحن البامبارة (الزنج)، نعرف أن حثالة ما تعطيه لنا فرنسا من يورانيم مدينة (إرليت) لا يكفي لاقتصاد بلادنا، لكننا نقر في الوقت ذاته، ... أن هناك إهمالاً سافراً للشمال مقارنة بالجنوب، حيث العاصمة نيامي لكن ما ذنبنا نحن الضعفاء، تلك مسألة بينهم وبين العسكر الإقليميين."²⁷

2/2 هامش مدن الضواحي (اللذة والمنوع):

عقد الزوائى حاج أحمـد الصـديق فصلا كاملا بمجل عنوان هامش مدن الضواحي (اللذة والمنوع)، لتسليط الضوء على المسكوت عنه فى تركيبة الأقليات الإفريقية داخل منطقة الهقار، فاستطاع أن ينقلنا فى توصيف بديع إلى مشاهد يومية شكّلت واقعا ثقافيا مصاحبا للفرد الإفريقي أنى حلّ أو ارتحل، فكان اسم (حيّ الشاطو)، مكانا يوارى أو يدارى الثقافات الهامشية لدى هذه الأقليات من سحر وشعوذة وزنا وشذوذ ومخدرات بشتى أنواعها وتزوير للعملة الصعبة. فأسهم ذلك نشر هذه الآفات لدى أوساط شباب الهقار، فكانوا يقصدون هذا المقرّ الذى أضفى خارجا عن قبضة السلطات الأمنية الجزائرية، على حدّ تعبير أحدهم: "حتّنا بالشاطو لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه من أهل البلدة، إلا أولئك العربدين الذين يطلبون اللذة ولا يخشون الأمراض الجنسية المتنقلة ك(السيدا) والباحثين عن الخمر التقليدية الرخيصة من المتشردين، ... حتى الشرطة لا تقوى على دخول الحي، هو منطقة كامارادية حمراء كما توصف فى التقارير الأمنية".²⁸

1.2.2 . تزوير العملة الصعبة والمخدرات:

يصف أحد المهاجرين الأفارقة الغرفة التى كان يسكنها رفقة زملائه، وما شاهده فيها: "وجدت قناني كثيرة فارغة، مزروعة بأرجاء البيت للمشروبات الكحولية المقلّدة، التى يصنعونها تقليديا هنا، كما رأيت ياحدى الغرف جهاز الماسح الضوئى فى تعليبه الكرتونى، ... تخلد بجانبه محاليل كيميائية فى قارورات زجاجية صغيرة قال لي رفيق أسكن معه بالغرفة إنها لتزوير عملة الدينار واليورو".²⁹ وربما راحوا يوازنون بين شرّ الشرّين باعتبار العقوبة الأخفّ التى تنتظر المشتغل بها فيفضلون ترويح المخدرات على بيع العملة المزورة، مع أن كلا الشرّين ماله السجن.

2.2.2 مخيمات الجنس والشذوذ:

لم تخلُ مخيمات هؤلاء الأفارقة المستوطنين منطقة الهقار من ممارسة نشاط الدعارة بنوعها، زنا وشذوذ بل إن ذلك لم يعد متواريا بقدر ما هو بادٍ للعيان على مرأى ومسمع من الناس، كما يروي ذلك مامادو رفيق الحيف والضياع، "كان الوقت منتصف النهار عندما رجعنا للحيّ، الحركة بدأت تنشط قليلا، البعض من النساء الكاماراديات، بدأن يظهرن عند مدخل الحي كسلعة رائجة، كما كن عشية بأبواب الرقاق".³⁰

وفى موضع آخر يقول: "أدركنّا الحي بعد نصف ساعة من المشي، عند مدخله، ... الجلجلة تعمر الأزقة والبيوت المفتوحة فيها، الجنس اللطيف الكامارادي يستعرض سمحه بكل الطرق المتاحة، الإفوارية الجميلة التى طبعت لي ابتسامة عميقة بابها مغلق، لا شك أنها الآن ترفع ساقها"³¹

ولا ينفك تفكير هذه الأقليات الإفريقية فى هاجس إشباع الرغبة الجنسية لديهم، حتى وهم يتطلعون إلى وصول بلدان ما وراء البحر، لإيمانهم بنسق الهيمنة الذكورية الإفريقية فى المتعة الجنسية من لدن الأوروبيات، كما كان يتطلّع (جورج) رفيق مامادو لذلك، لولا أنه باء بالفشل وألّقي عليه القبض قبل أن يرى الفردوس المنشود، بعدما كان يبنى همرا من الأحلام لعيش هنالك، يقول عنه زميله " لا زلت أذكر عندما أسرّ ذات مرة فى خلوتي معه إن الأوروبيات الشقراوات يفضلن الرجل الكامارادي الأسود، كون الرجل الأوروبي باردا ولا يشبع لهنّ رغبة فى الممارسة الجنسية،

يصرفن عليك ويشوي نك اللحم ويقدمن لك البيض والحليب ويسعين في تسوية أوراق إقامتك المهم أن تدفع الفاتورة على السرير.³²

ولقد كان للمثلية الجنسية حظها في هذا الخيم الكماردي، ممثلة في شاتين من الكامبيرون، أحدهما يدعى (سيلفان) والآخر يدعى (جبروم)، فقد تعرضا للهوموفوبيا والمضايقة الشديدة في بلدهما الكامبيرون الذي يجرم العلاقة المثلية الطوعية، بعد انضمامهما لجمعية سرية للمثليين، وهما يطمحان في هجرتهما هذه إيجاد مرتع خصب في الضفة الأخرى، يسمح لهما بممارسة طقوسها بكل حرية وبلا حرج.

وها هو مامادوا يصف مدى سعادتهما عند وصولهما إلى الخيم بقوله: "كما أن الكامبيرونيين هما الآخرون وقتت أذناها كوقوف أذني الحمار، لسماع نخم الكامبيرون هنا، لا سيما ذلك المثلي منها، كان شكل هذا الأخير غريبا في كل شيء حتى في صوته الرقيق. الذي يتصنعه ويتكلف رفته بشكل عجيب والله.³³

وهنا تتأكد مقولة الجاحظ السالفة الذكر في الزنوج، من أنهم مشهود لهم بمزاولة الفاحشة، وأنك لا تكاد تجد زنجيا إلا وفيه نصيب من هذه الآفة، وقد استخدم الجاحظ مصطلح (الحلقي) للدلالة على الشذوذ.

3.2.2 السحر والشعوذة:

ثابتان لا يتغيران في حياة المجتمعات الإفريقية هما السحر والشعوذة، ويتجلى ذلك في رواية كاماراد، من خلال تمية قونكلي التي أهدتها والده مامادوا له، قبل مغادرته، ليستعين بها وقت المدلهمات والشدائد، وتكمن فاعليتها، "في الالتفات إليها وعضها بأسنان الأنياب فقط، عندها تفرج الغمة بشكل سحري"³⁴

رابعا: خلاصة:

مما تقدم في هذه الورقة البحثية نخلص للنتائج الآتية:

1. استمرار الصورة النمطية: ما زالت الأقليات الإفريقية في الخيال الجمعي تُحتزل في نسق اللون الأسود، بما يحمله من دلالات سلبية: الفقر، التخلف، المرض، والبهيمية، وهي صورة متوارثة من الروافد التاريخية (لعنة حام) والجغرافية (نظرية الأقاليم)
2. الثابت والمتغير في الصفات: أما الثابت فيتمثل في السات الحلقية (سواد البشرة، الشعر القطط، البنية القوية)، والجد على الأعمال الشاقة وأما المتغير فيشمل التحولات الاجتماعية والثقافية التي فرضتها الهجرة وظروف الاستقرار في الهقار.
3. المفارقة الطبقي والاجتماعية: رغم امتلاك بعض الدول الإفريقية ثروات باطنية (اليورانيوم مثلاً)، إلا أن الفقر والحرمان يظلان أبرز سات واقعهم، وهو ما انعكس في حياة المهاجرين ومعاناتهم اليومية.
4. الخضوع والقابلية للاستغلال: تُظهر الرواية تماثلًا للأفارقة كأيدٍ عاملة رخيصة سهلة التوجيه، تقبل التلقين والخضوع الكامل لأوامر "الآخر"، ما يعزز النظرة التبعية.
5. المركز والهامش: ثنائية واضحة داخل المجتمعات الإفريقية (غنى/فقر، شمال/جنوب) انتقلت إلى تمثيل الأقليات بالهقار، حيث يعيش المهاجرون في الهامش الاجتماعي والاقتصادي.

6. الثقافات الهامشية والمسكوت عنه: الرواية أبرزت انتشار أنماط ثقافية سلبية مرتبطة بالمهاجرين منها: السحر والشعوذة والمخدرات وتزوير العملة الصعبة والدعارة والمثلية الجنسية. وهذه الممارسات صارت جزءاً من الصورة المتداولة عنهم، وأسهمت في تميطهم أكثر.
7. البعد السياسي للهجرة يمثل في كون الهجرة غير الشرعية ليست مجرد بحث عن لقمة عيش، بل هي نتيجة مباشرة لفساد الأنظمة السياسية، الاضطرابات العسكرية، والإقصاء الاجتماعي، ما يدفع الشباب الإفريقي إلى البحث عن "الفردوس الأوروبي".
8. إعادة إنتاج التهميش حيث إنّ تمثيل الأقليات الإفريقية في "كاماراد" يعكس تكرار الصور التاريخية عنهم، مع إضافة صور جديدة من الواقع المعاصر (الهجرة، المخيمات، الانحرافات)، وهو ما يرتفع ثنائية الثابت والمتغير في خطاب الهوية.

هوامش:

- 1 ينظر نادر كاظم، 2004م، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 217 - 218
- 2 الجاحظ، 1424هـ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ، 3/ 119.
- 3 الجاحظ، المرجع نفسه، 2/ 294.
- 4 الجاحظ، المرجع نفسه، 4/ 295.
- 5 الجاحظ، المرجع نفسه، 5/ 19.
- 6 الجاحظ، المرجع نفسه، 2/ 179.
- 7 الجاحظ، المرجع نفسه، 5/ 170.
- 8 الجاحظ، 1423هـ، البيان والتبيين، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1/ 130.
- 9 ينظر نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، مرجع سابق، ص 216.
- 10 الجاحظ، الحيوان، المرجع السابق، 1/ 189.
- 11 الجاحظ، المرجع نفسه، 5/ 248
- 12 ابن خلدون، 2016م، المقدمة، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ص 213
- 13 ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 266
- 14 ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 344
- 15 ينظر محمود حيدر، (2019م)، فلسفة الإنكار نقد نظر هيغل إلى الإسلام والشرق، مجلة الاستغراب، مكتب بيروت، العدد 14، السنة الرابعة، ص 250.
- 16 التوحيدي أبو حيان، 1424هـ، الإمتاع والمؤانسة، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، ص 71 - 72.
- 17 حاج أحمد الصديق، 2015م، كاماراد رفيق الحيف والضياح، ط1، الجزائر، دار ميم للنشر، ص 158.
- 18 حاج أحمد الصديق، كاماراد، المرجع السابق، ص 15.
- 19 ينظر المرجع نفسه، ص 37.

- 20 المرجع نفسه، ص 05.
- 21 المرجع نفسه، ص 08.
- 22 المرجع نفسه، ص 37
- 23 المرجع نفسه، ص 35
- 24 المرجع نفسه، ص 120 وينظر أيضا ص 23 و 107 و 108.
- 25 المرجع نفسه، ص 168.
- 26 المرجع نفسه، ص 170.
- 27 المرجع نفسه، ص 82
- 28 المرجع نفسه، ص 229
- 29 المرجع نفسه، ص 214
- 30 المرجع نفسه، ص 213 وينظر أيضا ص 218.
- 31 المرجع نفسه، ص 268
- 32 المرجع نفسه، ص 264.
- 33 المرجع نفسه، ص 196 وينظر أيضا ص 130 و 145 و 174.
- 34 المرجع نفسه، ص 102. وينظر أيضا ص 103.

قائمة المراجع:

01. ابن خلدون، 2016م، المقدمة، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم.
02. التوحيدي أبو حيان، 1424هـ، الإمتاع والمؤانسة، ط1، بيروت، المكتبة العصرية.
03. الجاحظ، 1424هـ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ.
04. الجاحظ، 1423هـ، البيان والتبيين، بيروت، دار ومكتبة الهلال.
05. حاج أحمد الصديق، 2015م، كاماراد رفيق الحيف والضبايع، ط1، الجزائر، دار ميم للنشر.
06. محمود حيدر، (2019م)، فلسفة الإنكار نقد نظر هيغل إلى الإسلام والشرق، مجلة الاستغراب، مكتب بيروت، العدد 14، السنة الرابعة.
07. نادر كاظم، 2004م، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.